



تيمغارين / نساء

شريف أدرادك

طالب باحث في المالية و التسيير  
باحث في اللغة و الثقافة الأمازيغية



## معاناة المرأة الصنهاجية بأعالي جبال الريف المنسية

### مقدمة

مزردوي و زرقت و تارغيست، و القبائل المزدوجة اللسان (أمازيغية-عربية) من بني احمد، و بني بشير، و تاغزوت، و بني بونصار، و بني خنوس، و بني بوشيت، و كتامة، و بني سداث، مكونة من عناصر إثنية غمارية و صنهاجية مع غلبة للعناصر الصنهاجية، و هي تتحدث لهجة تختلف عن الريفية بصريح العبارة، مقتربة كفاية إلى اللهجة السائدة في الأطلس المتوسط.

تعتبر المرأة الصنهاجية من أبرز مكونات المجتمع الريفي بالرغم من كون أغلب سكان الريف لا يعلمون أي شيء عن قبيلة صنهاجة اسراير و عن لغتهم الأمازيغية التي تختلف عن أمازيغية الريف المتعارف عليها، إضافة إلى ثقافتهم و عاداتهم التي تشبه إلى حد كبير عادات قبيلة بقيوة.

تشكل المرأة ركيزة المجتمع الصنهاجي الذي يمتد على مساحة شاسعة بإقليم الحسيمة، حيث تتكون اتحادية قبائل صنهاجة اسراير من 11 قبيلة هي: آيت مزردوي، زرقت، آيث سداث، آيت بونصر، آيت خنوس، آيت احمد، آيت بشير، تاغزوت، كتامة (إكوثامن)، آيت بوشيت و قبيلة تارغيست، و تعتبر مدينة تارغيست حاضرة هذه القبيلة. و نظرا لشساعة مساحة القبيلة و كثافة سكانها فقد قسمت إلى دائرتين إداريتين هما دائرة تارغيست و دائرة كتامة.

و ما لا يعلمه الكثير هو أن سبب اختلاف سحنة و لهجة سكان الريف الأوسط (إقليم الحسيمة) عن نظيرتها في الريف الشرقي راجع إلى الأصل الصنهاجي لسكان الحسيمة و الأصل الزناتي لسكان الريف الشرقي. يقول أنجلو غريلو في كتابه "أسلمة و تعريب بربر شمال المغرب" ص130 (ترجمة عبد العزيز شهبم): إن المجموعة التي سنسميها ريفية بما تحمله العبارة من معنى، و التي تضم قبائل بني ورياغل، و بقوية، و الفروع البربرية اللسان من بني عمارت و ثوفيست من قبيلة بني يطف، تكون النواة التي امتزجت فيها عناصر إثنية من غمارة و صنهاجة. أما المجموعة اللهجية التي تضم القبائل البربرية اللسان من بني

## 1- تشخيص الواقع اليومي للمرأة الصنهاجية

عندما نقوم بجولة في مداشر أعالي جبال الريف و خصوصا بمنطقة صنهاجة اسراير، نكتشف واقعا مريرا للمرأة الأمازيغية و مغائرا للأصوات الرنانة التي تنادي بالمساواة و حقوق المرأة.

تستيقظ المرأة مع الفجر لتصافح يوما مليئا بالمتاعب و المشقات. تبدأ الصنهاجية يومها بقطع الحطب الموجود بمنزلها لتحضر وجبة الفطور و بعد ذلك تقدم العلف للماشية. بعد أن تطمئن على أطفالها و زوجها و تقدم لهم وجبة الفطور، تخرج للحقل لجلب الأعشاب الضرورية لعلف الماشية أو تذهب للغابة لإحضار أغصان شجر البلوط البري (تأكل الماشية أوراقه، بعد ذلك تجفف الأغصان تحت أشعة الشمس، ليستعمل في الأخير كحطب لإشعال الفرن التقليدي المسمى بأمازيغية صنهاجة "أينور") المعروف بـ "أمالو" في أمازيغية صنهاجة و نبات "تيرگلت" و "إرفود" المستعمل كعلف للماشية.

عند عودتها إلى المنزل، تقوم المرأة الصنهاجية بتنظيف حظيرة الماشية (أشين)، تقدم لهم العلف من جديد، لتحمل بعد ذلك فضلات ماشيتها (تيرا) إلى مكان مخصص لرمي الفضلات يسمى بأمازيغية صنهاجة "تازوبايت" أو تضعه في حقل (أمرجاع) من حقول العائلة ليستعمل كسماد.

تعود المرأة بعد ذلك للمنزل لتحضر وجبة الغداء و جلب الماء من عيون الماء التي تتواجد بكثرة في منطقة صنهاجة. بعد ذلك تنظف المنزل و تغسل الأواني لتصعد بعدها للجبل (أدار) و تجلب حطب شجر الأرز (أمگود) المستعمل للتدفئة.

في المساء، تحضر المرأة الصنهاجية وجبة العشاء و تقدم العلف للماشية، لتختتم بذلك يوما حافلا بالمتاعب و المشقات.

هذا بالنسبة للأيام العادية، أما فيما يخص الأيام الاستثنائية فوضعية المرأة الصنهاجية مختلفة حيث تزداد أعباءها:

### - الحرت:

تقوم المرأة الصنهاجية بتحضير الأكل للعاملين بالحقل، و تحمل السماد الطبيعي و الاصطناعي إضافة للبذور إلى الحقل. كما أنها تعمل على تنقية الحقل من الأعشاب الضارة و في بعض الأحيان تساهم في عملية الحرت.

بعد الانتهاء من الحرت، تجلب المرأة أغصان شجرة البلوط البري (أمالو) و أغصان شجرة معروفة باسم "أساسنو" إضافة لنبات يسمى "أفرسيو" لتضعه فوق تراب الحقل و ذلك تفاديا لانجراف التربة خلال عملية السقي.

### - الحصاد:

يقوم الرجل بحصد المحصول و في بعض الأحيان تساعده المرأة في ذلك، غير أن الدور الرئيسي للمرأة خلال موسم الحصاد يكمن في تكفلها بنقل المحصول على ظهرها من الحقل إلى المنزل.

### - جني الثمار و الخضر:

بعد أن يقوم الرجل بإسقاط الثمار من الأشجار و جني الخضر من الحقل، يأتي دور المرأة حيث تجمع المحصول في أكياس لتحملها على ظهرها إلى المنزل. بالنسبة للخضر فتوضع في مكان يدعى "لخزين"، أما الثمار الجافة فتتقى من القشور و منها ما يغسل كما هو الحال لـ "الگركاع" (تاغاييت).

### - غسل الملابس (التصبين):

نظرا لكثرة مشاغلها فإن المرأة الصنهاجية تخصص يوما من أيام الأسبوع لغسل فيه ملابس أهلها، حيث تحمل الملابس المتسخة إلى النهر (أسيف) لغسلها هناك. بعد التصبين يأتي

دور التنشيف فتقوم بنشر الملابس على الصخور أو الحشائش المنتشرة على ضفتي النهر حتى تجف الملابس.

## 2- مكانة المرأة داخل المجتمع الصنهاجي

يتميز حضور المرأة في المجتمع الصنهاجي بالقوة، فهي تقوم بأغلب الأعمال الضرورية في الحياة الاجتماعية. وقد كان للمرأة الصنهاجية عبر التاريخ حضور قوي في المجتمع والسياسة حيث لاحظ هذا المؤرخون المسلمون القدامى وعلى رأسهم الرحالة ابن بطوطة. و لعل الدور الذي لعبته زينب النفزاوية في إيصال يوسف بن تاشفين الصنهاجي لسدة الحكم لخير دليل على ذلك.

إن المرأة في قبائل صنهاجة بالريف تلعب دورا فعالا داخل و خارج المنزل، فهي تساهم داخل الأسرة في اتخاذ القرارات و الإشراف و التوجيه. كما أن للمرأة الصنهاجية حرمة داخل المجتمع (دشر و القبيلة)، فالرجال يعتبرون نساء مدشرهم و قبيلتهم كقريباتهم حيث من العادي جدا رؤية امرأة خارج المنزل لوحدها أو رفقة أحد أفراد مدشرها (المدشر لدى قبائل صنهاجة يعتبر نتاج تزاوج عائلي).

كباقي النساء الأمازيغيات، فإن المرأة الصنهاجية هي وعاء اللغة و الثقافة و الهوية الصنهاجية بجمال الريف، فلولاها لاندثرت أمازيغية صنهاجة اسراير و لتعربت جل قبائل صنهاجة التي لا تزال تقاوم التعريب رغم الإقصاء الذي يتعرض له المنحدرون من هذه القبيلة على مستوى الجزء الغربي من إقليم الحسيمة (بني ورياغل و بقبوة). فالمرأة الصنهاجية تعلم أبناءها الأمازيغية (تسمى الأمازيغية في قبائل صنهاجة اسراير بالشلحة) و تنقل لهم الثقافة الأمازيغية شفهيًا. كما تعتبر المرأة الصنهاجية فنانة بالفطرة، فهي إلى جانب الرجل تساهم خلال الأفراح في أداء رقصة "لهات" المنتشرة في الريف الغربي و تتكفل بإلقاء الأشعار المسماة بأمازيغية صنهاجة اسراير "تيشرين" أو "نيغميرين".

إلى حدود سبعينات القرن الماضي، كانت النساء العجائز يقدمن وحدهن رقصة أمازيغية مستعملات الدربوكة المسماة بأمازيغية صنهاجة "أڭوال" و مرتديات لباسا خاصا (الحايك) في حين يقوم الرجال بإطلاق البارود في الهواء الطلق (دون استعمال الخيول) و ذلك على هامش الاحتفال بلامة عبد المالك بن مروان بمدشر تماديت بقبيلة آيت بونصر، لكن و للأسف فإن هاته الرقصة اندثرت و حملت معها تراثا غنيا تركه لنا الأجداد و لم نحافظ عليه.

جدير بالذكر أن المجتمع الصنهاجي كان عبر التاريخ مجتمعا أميسيا أي أن الطفل ينسب لأمه كما هو الحال الآن بالمجتمع التركي (الطوارق) ، و قد كانت هذه العادة منتشرة لوقت قريب بصنهاجة الريف (الجيل الأخير من الأشخاص المنتسبين لأمهاتهم لا يزالون قيد الحياة و تتجاوز أعمارهم الثمانين سنة) فيقال مثلا: موح ن فضيلة أي محمد بن فضيلة، غير أن دخول نظام الحالة المدنية حيز التنفيذ في مغرب ما بعد الاستقلال أدى إلى تعويض النسب الأميسي بنظيره الأيبسي.

## 3- آفاق تنمية وضعية المرأة الصنهاجية

### بالريف

للخروج من الوضعية الكارثية التي تعيشها المرأة الصنهاجية باعالي جبال الريف، يجب التفكير في تغيير البنية الاجتماعية لقبائل صنهاجة اسراير التي تعتمد في انتاجها الاقتصادي على المرأة، و هذا ليس عيب. لكن العيب هو أن يتم استغلال مجهود المرأة من طرف الزوج الذي يبدد اموال الأسرة بدون حسيب و لا رقيب. فبالرغم من كون سكان صنهاجة اسراير يزرعون "الكيف" و يتحصلون على مداخيل أكبر من المداخيل الفلاحية لجيرانهم من قبائل بقبوة و بني ورياغل...

الأعشاب الطبية، الفطر البري (المسمى بالشلحة: إكرسولن) ... وذلك من أجل الرفع من المستوى المعيشي للمرأة الصنهاجية.

تجدر الإشارة إلى أن هذه الوضعية الكارثية تعيشها فقط المرأة الأمازيغية في صنهاجة اسراير، في حين تبقى المرأة التي تعيش في مداشر "الشرفاء" <sup>1</sup> تحظى بمكانة متميزة حيث تكتفي بالعمل داخل المنزل و رعاية شؤون أطفالها.

### خاتمة

لقد اتسم موضوع الرقي و النهوض بوضعية المرأة في المغرب بالاستغلال من طرف الجمعيات النسائية و الأحزاب السياسية التي اتخذت من حقوق المرأة مطية لإيصال عضواتها إلى المجالس المحلية و البرلمانية و إلى كرسي الوزارة، غير أن الحقيقة المرة للمرأة المغربية مازالت مستمرة في أعالي الجبال حيث تعاني المرأة من التهميش و الأمية و الاستغلال في حين تكتفي سيدات الصالونات السياسية بالاتجار بحقوقهن للوصول لأغراضهن السياسية.

إلا أن الوضعية السوسيواقتصادية لهؤلاء أحسن من نظيرتها بصنهاجة اسراير. ليبقى السؤال المطروح، لماذا؟

للإجابة على هذا السؤال نطرح فرضيتين: الأولى، كون زراعة القنب الهندي محرم شرعا ليس لذاتها لكن لكونها توجه لتخريب عقول الناس، الشيء الذي يجعل مسألة "البركة" تغيب عن مداخل هذا المحصول، مما يؤدي بالفرد إلى تبذير امواله في الاستهلاك دون ان تظهر عليه أثر النعمة. أما الفرضية الثانية و هي غير منفصلة عن الفرضية الأولى، فتتجلى في بروز ظاهرة يندى لها الجبين في المنطقة و يتعلق الأمر بتبديد الاموال في سلوكات لا أخلاقية، حيث يتم استغلال المرأة الصنهاجية لمدة سنة كاملة في عملية الانتاج الفلاحي ليقوم الرجل بصرف المال المحصل عليه في الملاهي و على بنات الهوى بطنجة و الاطلس المتوسط. و هذه الظاهرة لا تنطبق على الكل، فهي لا تشكل سوى سلوكات لبعض الأشخاص في المنطقة، لكن يبقى الخوف من أن تنتشر بين جميع الصنهاجيين. كما أن نسبة مهمة من المال المحصل عليه من زراعة القنب الهندي تتجه لجيوب المسؤولين الذين يبتزون المزارعين في مداشرهم او على الطرقات، إضافة للأطر الطبية التي تستغل جهل سكان المنطقة و تسلبهم أموالهم لتلقي علاجات - هي اصلا مجانية - تؤدي في غالب الأحيان إلى موت المريض.

كما يجب التفكير في بناء مراكز سوسيواقتصادية موجهة للنساء بمداشر "صنهاجة اسراير" تهدف لتعليمهن بعض الحرف المهنية و القضاء على الأمية و سطهن و تنظيم حملات تهدف للتعريف بحقوقهن و المطالبة بها، و العمل على خلق تعاونيات نسائية لتسويق المنتجات المحلية ك: الكركاع، اللوز، التين،

<sup>1</sup> عائلات تدعي النسب إلى آل البيت حيث تقطن في مداشر منعزلة عن الأمازيغ الصنهاجيين، و يتحدثون الدارجة العربية فيما بينهم و مع الأمازيغ. لا يزوجون بناتهم للأمازيغ الصنهاجيين في حين يمكن لهم الزواج من بنات الأمازيغ، حيث يطلقون على الأمازيغ الصنهاجيين المحيطين بهم اسم "لقباين" أو "إقوبانيين" (أي الجاهلين)، و يعتقدون بأنهم سيدخلون الجنة لا محالة لأن الرسول صلى الله عليه و سلم سيشفع لهم.